"البئر الأولى" سيرة جبرا إبراهيم جبرا

قراءة في العتبات الخارجيّة

أ.د. فاضل عبود التميمي– جامعة ديالى/العراق

الملخّص:

تتشكّل هذه (القراءة) مَتنيّا من هدفٍ تضمّنَ الإحالة على المنهج المتّبع في مواجهة سيرة الأديب المبدع: (جبرا إبراهيم جبرا 1920–1994): أعني: السميائيّة المعنيّة بمساءلة العتبات الخارجيّة التي تقف عند الغلاف، والعنوان، والإهداء، والمستهلّ، والمقدّمة، وغرضها الكشف عن جوهر علاماتها، بعد أن أيْقَنَتِ– القراءةُ– أنّ السيميائيّة في تحليلها العتباتي لها القدرة على استنطاق الغاطس من الرؤى والأفكار .

الكلمات المفتاحيّة: البئر/ سيرة جبرا/ سيمياء/ الإحالة/ الوظيفة.

Abstract

This study deals with Jabra Ibrahim Jabra's (1920 – 1994) autobiography. The researcher explores the semiotics to analyse the external thresholds such as: the cover, the title, the dedication, the preface and the introduction. It aims at revealing the essence of the content of the text.The semiotic approach has the capacity to bring out which is hidden and surrounds the thresholds .

Keywords: well, Biography of Jabra, semiotics, reference, function.

هدف القراءة:

تسعى هذه (القراءة) إلى أن تدقق النظر السيميائي في (البئر الأولى)[1] سيرة (جبرا إبراهيم جبرا) الذاتيّة راصدة فعل العتبات: الغلاف، والعنوان، والإهداء، والمستهل، والمقدمة، كاشفة ومكتشفة جوهر علاماتها، وهي تحيل على عدد من المداليل المنفتحة على أفق حياة كان

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/890

السارد شاهدا على وجودها، دون أن تنسى أنّ السيرة الذاتيّة عند جورج ماي: "قصّة يحدّث فيها المرء عن حياته في أخصّ مظاهرها"[2].

والقراءة تتوافق مع مَن يرى أن العتبات في السيرة الذاتيّة بخاصّة تحظى بقيمة تشكيليّة، وسرديّة عالية تسهم في رسم صورة السيرة، وتوجه محتوياتها نحو فهم عميق، وتحدّد منطلقاتها بشكل دقيق، وتكرّس دلالة الميثاق السير ذاتي فيها، فضلا عن أثرها في الحفاظ على معالم النوع الفني وحراسة تقاليده، وأعرافه وخصائصه[3]، فهي- والحال هذه- عمود النصّ، ومفتاح تلقيه المفضي إلى كنز الإدهاش.

إنّ نظام العتبات الذي تتبناه القراءة إجراءٌ سيميائيّ "يتألف من إمكانيات دلاليّة تبدأ مع فلسفة العنوان المرتبط بقيم إشاريّة وسياقيّة، ويعدّ مفتاحا مهما للمرور إلى النص، ويتابع فضاء الملاحق الدلالية بقصد اقتحام ما كان مسكوتا عنه، ويعتمد في بنائه على فاعليّة الأجزاء المشكّلة له من النص المصاحب، أو النص اللاحق، أو الربط بين البداية والنهاية، وتحديد مغزى التصدير، والحديث عن معطيات الإهداء"[4]، وهذا وحده كاف لأن نشرع في القراءة، وتحليل مظاهر العتبات في سيرة (جبرا) متّكئين على ما تقدّمه السيميائيّة من تأويلات تقع في صلب خطاب النقد الحديث على وفق الآتي.

1- الغلاف:

يُعدّ الغلاف في أيّ كتاب (أيقونة) تدخل في علاقة تماثل مع حقيقة العالم الخارجي الخاص بها[5]، وهذا ما هو موجود في غلاف (البئر الأولى) الذي امتلك موضوعا بصريّا معيّنا يمكن الاستدلال عليه علاماتيّا، بوجود سطح يحمل غلافا جامعا لعدد من العلامات اللسانيّة، التي أسهمت في تشكيل المحتوى، وتحفيز المتلقي نحو فعل القراءة الخاصّة بالسيرة.

يحيل الغلاف بشكله الواضح على عدد من العتبات والمعلومات التي دخلت في حيّزه، ليكون لها أثرٌ في تشكيله، وتقديمه بإطاره العام وهي: العنوان الرئيس للكتاب (البئر الأولى)

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/890

وقد اتخذ موقعا في الأعلى وبخط سميك شغل المساحة كلّها، بلون أسود، وبخلفيّة مستطيلة تميل إلى اللون الأخضر الفاتح الذي يشير إلى الهدوء، والنماء، والتجديد، وهي إشارات تتضمّن بعض سمات صاحب السيرة، وقد خلت-الخلفيّة المستطيلة- من العنونة الفرعيّة الأنواعيّة الشارحة، التي ستظهر لاحقا في الغلاف الداخلي: (فصول من سيرة ذاتيّة)، فقد حرص المؤلّف على تقديم العنوان بوصفه علامة لسانيّة موجزة ومختصرة ومفتقرة إلى فكرة الشرح والتفصيل، وهذا يكشف عن جزء من أسلوبيّة (جبرا) التي تميل إلى التكثيف، والاقتصاد، لكن ليس على حساب المعنى العام.

في الجهة اليمنى من الكتاب تمّ تسقيط مستطيل أيقونيّ ورديّ اللون بطول متميّز، يربط بين مربع العنوان وقاعدة الغلاف بعرض قصير، وقد تربّعت على قاعدته عبارة: (دار الآداب) التي تولّت نشر السيرة، وهي دار لبنانيّة سبق للمؤلّف أن نشر فيها عددا من كتبه المختلفة، احتوى المستطيل على ثلاث صور تمّ تخطيطها على وفق تشكيل خاص: الأولى من الأعلى لفتى يحيل شكله على صاحب السيرة في طفولته التي أخذت فصلين من السيرة، والثانية لفتاة صغيرة لعلّها جزء من مضمون السيرة ، والثالثة من الأسفل لوجه يصعب تحديده، وقد انتهت سلسلة الوجوه بتخطيط لوردة حمراء كانت بمنزلة القاعدة للأيقونة، وقد لُفّتْ جميع الوجوه والوردة بسلسلة صفراء لها نتوءات، أحاطت بالصور من كل جانب ليكون المستطيل أيقونة داخل أيقونة الغلاف تشير إلى مضمون السيرة وسردها.

وكان لاسم صاحب السيرة (جبرا إبراهيم جبرا) أن اتخذ حيّزه اللساني وسط الغلاف أسفل العنوان يسار أيقونة الصور بحروف كبيرة، ضمن مستطيل أبيض مائل للصفرة، وقد شغل المكان دون أن تزاحمه إشارات، أو إحالات تحيل على نوع الكتاب أو جنسه، كِبَرُ حروف الاسم سيمياء خاصّة تشير ضمنا إلى اعتداد المؤلّف باسمه وحرصه على أن يكون واضحا ومميّزا.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/890

2- العنوان:

العنوان علامة لغويّة تنفتح على دالّ يتضافر مع مدلول، وهو بشكل عام كتلةٌ مطبوعةٌ على صفحة غلاف الكتاب الأول حاملة لمصاحبات أخرى مثل: اسم المؤلف، أو دار النشر، أو غيرهما، والمهم في العنوان سؤال الكيفيّة، أي كيف يمكننا قراءته بوصفه نصّا قابلا للتحليل والتأويل؟[6]، فهو- والحال هذه- بصمة المؤلّف الأولى المكتنزة بغنى المدلول، والمفتقرة إلى رحابة التفصيل.

يمكن تفكيك عنوان سيرة (جبرا): (البئر الأولى) في صورتها النحويّة، والدلاليّة وصولا إلى تحديد سيميائها الخاص، فـ(البئر) في اللسان العرب: القليب وهو أنثى؛ ولهذا وصفت بالأولى، وهي خبر لمبتدأ محذوف تقديره هذه، والأولى نعت، والبئرُ بوصفها مكانا دالّا، ومدلولا عليه في نص العنوان علامةٌ كان لها أنْ تشظّت على متن السيرة وأقسامها الإحدى والعشرين، فهي تتراءى مكلّلة بأكثر من دلالة كما سنرى.

ظهر عنوان السيرة على الغلاف واضحا ومحدّدا: (البئر الأولى) وهو يحمل سمة التعيين للنص بالإحالة على التسمية، فقد وُضع قصدا لما للبئر من أهميّة في الحياة التي أدركها صاحب السيرة، وجعلها عنوانا مهيمنا على متن المعنون، و(البئر) مكان متعيّن له سمة الثبات، و(الأولى) توصيف حسابي يحيل على سلسلة أعداد أماكن: (آبار) ظاهرة، ومغيّبة في نصّ السيرة لكنّ علاماتها تومض في متون أخرى سيكتشفها المتلقي في سيرة جبرا الثانية: (شارع الأميرات)[7]، وفي رواياته، وقصصه لتكون آبارا جديدة في حياته لها ظلّها المعلن في أدبه.

وإذا كان العنوان واضحا ومحدّدا على غلاف السيرة فإنّه سرعان ما تغيّر على صفحة الغلاف الداخلي لتضاف إليه عبارة: (فصول من سيرة ذاتيّة)، لتكون الإضافة بنية علاميّة لها سمة الشارح، والمفسّر للعنوان الرئيس: الأصلي، بوصفها عنصرا من العناصر الأساسيّة التي

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/890

دخلت الثقافة المعاصرة[8]، لتحيل على النوع النثري الذي غطي متن الكتاب، وأسهم في فعل تلقيه.

يرى (جيرار جنيت Gerard Genette): أنّ للعنوان وظائف أربعا: التعيين: أي تعيين اسم الكتاب الذي به سيشتهر و يُتداول، والوصف: أي تحديد مضمون الكتاب، والإغراء: أي إغراء القارئ باقتناء الكتاب،والإيحاء: أي التلميح بالقيمة الإيحائية للكتاب التي تسهم في تقبله[9]، وهذه الوظائف تبدو واضحة في(البئر الأولى) التي تنتمي إلى:

1-نمط من الأمكنة، فالبئر في مدينة (بيت لحم) الفلسطينية مدينة (جبرا) الأولى سمة من سمات التلازم المكاني والزماني التي عاشها الاثنان معا، لا يكاد ينفكّ أحدهما عن الآخر، بل لا يكاد الإنسان في فلسطين أن ينفكّ عنها فهي لازمة الزمان في المكان بوصفها وسيلة الحياة التي لا وسيلة بديلة عنها، يقول سارد (جبرا): "كلما أردنا التحوّل إلى دار جديدة نسكنها، كان أول ما نسأل عنه هو البئر، هل توجد بئر في حوش الدار؟ هل هي عميقة؟ وفي حال جيّدة؟ هل ماؤها طيّب؟ أم أنّها لم تنزح من طينها منذ سنين؟"[10]

لا شكّ في أنّ تتابع سؤالات السارد في النصّ السابق المقتطع من متن السيرة، يحيل على أهميّة البئر في حياة شاغلي المكان، فهي عصب الحياة التي تتقدّم سؤالات أخرى تقف عند طبيعة الأرض التي تحمل البئر، وموقع الدار، وسعة المساحة، والقرب من السوق.

وآبار السارد: (آبار مدينته) أنواع تتّصل بتنوع الدور، وتغاير أشكالها، وأفهم من كلام السارد أنّ للأغنياء آبارا ليست مثل آبار الفقراء، وخرزاتها (بكراتها) أنواع، وكلّ خرزة بمنزلة سجلّ تاريخيّ للدار التي هي فيها، ومع تقادم السنين "تترك حبال الدلاء، وهي تنزل في البئر، وتصعد آثارها في (فم) الخرزة فتصقله أولا، ثمّ تحفر فيه أخاديد تُعمّق مع مضي الزمن وتتكاثر"[11]، فهي أخاديد الزمن بلا شك تلك التي تستعيرها أفواه الخرز من الوجوه الآدميّة التي تسكن الدار، وتتلازم في متوالية حسابيّة مع الآبار ليعيش الاثنان محنة الوجود والانقراض

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/890

معا، فالبئر ضرورة من ضرورات الحياة، حين تجد الحياة نفسها بلا أنهر، أو سواقٍ جارية "تلك البئر الأوليّة التي لم يكن العيش بدونها ممكنا...وحياتنا ما هي إلا سلسلة آبار."[12]

2- نمط من المجاز السردي ذي الخاصيّة الرمزيّة، التي تغطي بلاغته المتن المرويّ كلّه لتنفتح أسلوبيّا على مجريات السرد، وطرائق تشكّيل الخطاب متّخذة من الرؤية الخاصّة لبلاغة السرد نهجا يرى أنّ المبدع في السرد لا يلجأ دائما وهو يبني استعارته التمثيليّة الخاصّة إلى ملكته الفرديّة الأسلوبيّة فقط، بل يقتبس أساليب غيره، وتصوّراتهم، ويصنع من ذلك كلّه عالمه السردي الخاص[13]، وهذا ما صاحب تدوين السيرة الذاتية (البئر الأولى) التي لا يمكن فضّ تشابكها المدلولي مع ما يحيطها من أنواع حياتيّة إلا بالإحالة على مجاز المداليل نفسها، ومصادر الوعي الخاص بالمؤلّف.

في الإهداء الذي تقصّد (جبرا) الإتيان به: (إلى الذين لقّنوني سحر الكلمة فملأتُ بئري من عذب مياههم) يتّضح مدلول البئر بوصفه مجازا لا مكانا حقيقيّا، فالبئر فيها ليست حيّزا يرد الإنسان والحيوان الماء فيه، إنّما هي مجاز يشير إلى آبار أخرى مرصوفة بالكلام، لعلها ذاكرة المؤلف التي مُلئت بالفن، وخبرة خيرة المعلمين ممن تناوبوا على (تلقين) (جبرا) أي: (تفهيمه) حتى مُلئت (بئره) أي ذاكرته، وحافظته بشتى أصناف العلوم، والفنون، والآداب، فالبئر في الإهداء (بئر) قراءات معرفيّة، أي أنّها مجاز خرج من دلالته الأولى الحقيقيّة المكانيّة ليكون على سعة الزمان والمكان بئر المعرفة الراسخة في عقل السارد، وقد فاضت مياهها على دكّتيها أنواعا أدبيّة أدركها (جبرا) منذ وقت قريب من طفولته.

قُدّر للبئر في سيرة (جبرا) أن تكون مكانا (حقيقيا)، وآخر (مجازيّا) تمتد سيمياؤه بعيدا في سنوات العمر المتماهية في حروف السيرة فـ:"هي بئر الطفولة...البئر التي تجمعت فيها أولى التجارب، والرؤى، والأصوات، أولى الأفراح والأحزان، والأشواق، والمخاوف التي جُعلت تنهمر على الطفل"[14]، الذي هو (جبرا) بلا شك ذلك الذي كلّما استقى من تلك البئر ازداد مع ريّها فهما للتجارب، والرؤى والأصوات، فالبئر الأولى بئر كميّة توجد حيث يوجد

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/890

الإنسان، أمّا البئر الثانية فهي بئر كيفيّة لا تمنح مياهها إلا لمن كان على وعي خاص بالحياة، بمعنى أنّها مجازٌ مرمّزٌ يشير إلى الموضوع الذي يُعبّر عنه من خلال عرف يقترن بالأفكار العامّة[15]، وما أكثر مرموزات جبرا في شعره، وقصصه، ورواياته، وفنّه.

3-**الإهداء**:

الإهداء عتبة يتقصّد المؤلّفون في تشكيلها لما لها من وظائف تتعلّق بالتلقي، وطرائق الاتصال، وهي تقدير من المؤلف، وعرفان يحمله إلى الآخرين سواء أكانوا أشخاصا أم مجموعات واقعيّة، أم اعتباريّة[16]، وقد نصّ(جبرا) في سيرته على مضمونه بقوله: "إلى الذين لقّنوني سحر الكلمة فملأت بئري من عذب مياههم"[17]، فهو من نمط الإهداءات العامّة التي توجّه بها المؤلف إلى شخصيّات معنويّة[18]، غائبة في نصّ الإهداء، وشخصيّات أخرى حاضرة في نصّ السيرة لها سلطة الإسهام في تربية الذوق الفنّيّ في عقل المؤلف.

يكشف مضمون الإهداء في السيرة عن:

أ- كون الإهداء تضمّن إشارة لافتة إلى أهميّة المهدى إليهم في تكوين (جبرا) الطفل في مستويات التربية والعلم أيام الطفولة، وبداية الشباب.

ب- تجاوز مضمون الإهداء عتبته الخاصّة إلى متن السيرة الذي أحال على فضل المهدى إليهم بدءا من المعلم صاموئيل، وانتهاء بالأساتذة الذين تخرج على أيديهم في الكليّة العربيّة في القدس[19].

وإذا كان (جيرار جنيت) قد حدّد وظائف الإهداء في الوظيفة الدلاليّة، والوظيفة التداوليّة، فإنّ دلالة الأولى تبدو واضحة في ما تحمل من معنى للمُهدى إليهم، والعلاقات التي ينسجها نصّ الإهداء في سرد: (البئر الأولى)، وللمتلقي أنْ يقف عند دلالة الوظيفة الثانية، التي تنشّط الحركيّة التواصليّة بين المؤلف، وجمهوره الخاص، والعام لتحقّق قيمتها الاجتماعية، وقصديّتها

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/890

النفعيّة في تفاعل كلّ من المهدي والمهدى إليه[20]، آملا من خلال نصّ الإهداء أن يكون المهدى إليهم قد تسلّموا مضمون الرسالة، فإهداء (جبرا) في سيرته يحمل شكل قرينة تحيل على سبب التلازم الطبيعي بين المهدي والمهدى إليه قاسمها المشترك الموضوع الذي يربط بين الاثنين ليكون الإهداء دلالة التواصل بين مرسل ومتلق.

4– المستهلّ:

وهو الاستهلال عند (جيرار جينيت) ذلك الفضاء من النصّ الافتتاحي الذي يعنى بإنتاج خطاب معنيّ بالكتاب، وطبيعة نوعه الأجناسي، وله وظيفة مركزيّة تتمثّل في ضمان القراءة الجيّدة للنصّ من خلال السؤالين الآتيين: كيف يمكن قراءة الكتاب؟ ولماذا؟ وللاستهلال أهميّة اعتباريّة، وأخرى توثيقيّة، فضلا عن الأهميّات الأخرى: الفكريّة، والدينيّة، والأخلاقيّة، والاجتماعيّة، والسياسيّة، هذه الأهميّات في حقيقتها تشكّل المحتوى الجيّد للكتاب[21]، أي المضمون السامي لفكر المؤلّف.

واستهلال (البئر الأولى) ذو مقصديّة استعراضيّة بنيت على العرض، ومساءلة الذات، ثمّ الإجابة من خلال وفرة العلامات التي تحيل على تفكيك مغاليق السؤالات الخاصّة بـ (لماذا سيرة الطفولة)؟ وقد كان الجواب معمّقا نمّ عن رغبة في كتابة سيرة كاملة، لكنّ مؤلّف السيرة أحجم عن ذلك بسبب كثرة الرسائل التي تعدّ بالآلاف التي تسلّمها في حياته مكتوبة بالعربيّة، والإنكليزيّة، فضلا عن عسر المهمّة، وبُعدها عن يده لحظة الشروع بكتابة السيرة؛ ولهذا قرّر أن يكتب معتمدا على ذاكرته فحسب مسترجعا (طفولته)، والذاكرة وحدها لا تكفي لكتابة سيرة دقيقة؛ لأنها مترجرجة، وقلبٌ خؤون بسبب حالة النسيان التي تعتريها لحظة الشروع بالكتابة، ثمّ النسيان المتعمّد لغايات جماليّة، أو لغايات أخرى، ممّا تسهم في تشتيت الوعي، فضلا عن الرقابة الطبيعيّة التي يمارسها الذهن على القبيح من الأمور ، والحياء، وإعادة

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/890

صاحب السيرة بعد مدّة بناء علاقته السببيّة بين الأحداث التي لم يكن لها وجود زمن وقوع الأحداث[22].

وكان (جبرا) كما يفيد نصّ السيرة قد حفر في ذاكرته بعيدا، من خلال كوّة الماضي على متن الطفولة تلك التي تعد في أيّ سيرة، أو مشروع سير ذاتي منبعا مركزيّا وجوهريّا للتشكّل، والصيرورة، فحين يتعلق الأمر بالمبدع والفنان فإنّ الطفولة تبقى المغذي الأول لأيّة مغامرة إبداعية فهي المنطقة الخصبة التي لا يمكن تفاديها بسبب ثرائها[23]، أو القفز على سرديّاتها الصغرى ليس لأنّها سرديّات بكر فحسب بل لأنّها في طبيعتها الحكائيّة تبقى تقاوم النسيان.

ظلّ (جبرا) يتلصّص على طفولته حتى عاد بصيد ثمين، صار فيما بعد سياقا سرديّا مصدره الذاكرة ليس غير، ومؤلف السيرة الذي يعتمد الذاكرة في بناء سيرته بحسب (جورج ماي) سيكون مدار عمله مواد ذاتيّة هي ذكرياته الخاصّة، ومهما بذل من جهد فلا مناص له من أن يكون الخصم والحكم[24] ، أي أن الذاكرة وحدها غير قادرة على تقديم سيرة شاملة للإنسان، فهي بحاجة إلى مستندات الطفولة، وعمل المخيّلة، فالسيرة بوصفها نوعا أدبيّا سرديّا لا بد أن تستجيب لشروط الكتابة الأدبيّة التي يكتمل بناؤها في حاضنة (التخيّل) الذي يسهم في تنظيم درجات الحضور الإبداعي الذي عادة ما يُشير إلى وجود عمليّة معقّدة تستأثر بها عوامل نفسيّة، وحياتيّة عدّة، تتداخل معها مولّدات ومنبهات تسهم جميعا في صناعة الخطاب، وتبيّن مضامينه وهو غير بعيد عن الاستعمالات المجازيّة، وطرائق استعمال الخيال، وهذا يعني بالضرورة أنّ المبدع وإنْ كان كاتب سيرة ذاتيّة فإنّه "مضطر اضطرارا لا مناص منه إلى أن يفرض على الواقع شكلا يشوّهه لا محالة"[25]، على أنّ مفهوم (التشويه) في الكلام السابق يدور حول اعتماد صاحب السيرة اللغة التخيّليّة وإنْ بمقدار (يخرق) الحقائق، ويضفي عليها سمة المغايرة التي هي ضروريّة في كلّ نصّ أدبيّ يحاول تمثيل التجربة الانسانيّة بلغة الأدب تلك التي تتجلّى فيها: المجازات، وأفانين التقديم والتأخير، واللعب بمقامات الكتابة، وأعمدة الكلام[26]، وهذا ما فعله (جبرا) وهو يتعمّد الشعريّة في بناء أحداث (البئر الأولى) من خلال

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/890

مسألتين: الأولى الخصيصة البنائيّة التي تتعلّق بالعتبات، والأحداث، والشخصيّات، والزمن والمكان، والأخرى خصيصة الخطاب الذي انفتح على لغة السرد التي اتسمت بحلول روح الشعر فيها، أي أنّ الشعريّة في السيرة ما كانت إلا بسبب توظيف علامات لغويّة، وأخرى بنائيّة غرضها صياغة متن سرديّ مميّز.

نَظرَ (جبرا) إلى سني طفولته بعد أربعين عاما من ولادته، فوجدها تزدحم بتجارب وأحداث شخصيّة، والكتابة عنها ستكون مثيرة على الرغم من أنّها تحيل على حياة صبيّ بعمر السابعة، أو الثامنة، أي أنّه كان بصدد استعادة أسطورة الذكرى الأولى التي تضم برنامجا كاملا من الصور التي ينبغي تقديمها إلى المتلقي بإطار تخيّليّ منظّم[27].

لا شكّ أنّ تلك السنوات مهمّة في حياة (جبرا)، فهو يؤكد في الاستهلال نفسه أثرها في كثير من مقالاته، وقصصه القصيرة، وروایاته التي استعارت الأخيرة منها أجزاء من سيرته، وهذا يعني أنّ السيرة الذاتيّة منذ أن بلغت أوج ازدهارها صارت قدوة للرواية[28]، وشكلا من أشكال التضافر مع متنها، مع أنّ السرد (السير ذاتي) وريث السرد الروائي[29]، في النظريّة النقديّة الغربيّة التي تؤكّد حداثة السيرة، وتضارب الآراء في نقدها.

كَتَبَ (جبرا) سيرة طفولته بدفع من حديث جرى بعيد الحرب العالميّة الثانية، في إحدى مقاهي القدس مع سيدة "جذّابة وذكيّة اسمها (هايدي لويد) قالت إنّها نحّاتة وتدرس النحت في بغداد، وزوجها (سيتون لويد) آثاري مشهور ...قالت حدّثني عن حياتك، يقولون إنّك عشتَ، ومازلت تعيش حياة مثيرة...وبلمح البصر عاودني خليط من أحداث طفولتي، ومراهقتي وسنواتي بتداخل وتسارع عجيبين... هل أقول إنّها أوّل من زرع البذرة في ذهني بضرورة التحدّث عن حياتي بشكل من الأشكال؟"[30]، هذا يعني أنّ حديث السيّدة الانكليزيّة كان محفّزا لـ(جبرا) لأن يلملم أوراق العمر، ويسكب عليها حبر الكتابة بعد سنوات ليست بالقليلة من وقوع الحوار.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/890

و(جبرا) في سيرته لم يكتبْ تاريخا له، ولا تاريخا لأسرته، ولا تحليلا اجتماعيّا لبيت لحم[31]، إنّما كتب شيئا (شخصيّا بحتا) يرتكز على الذات مع الإشارات المغنية إلى البيوت، والأشجار، والوديان، والتلال، وبعض الشموس، والأمطار، والوجوه، والأصوات التي كان بها يحيا، وبها اكتشف القيم، والأخلاق، والجمال، والقبح، والفرح، والبؤس،[32]، وبهذا التفصيل لم يترك (جبرا) شاهدا واحدا من الحياة دون أن يستدعي ظلّه إلى متن السيرة؛ أي أنّه استدعى الحياة بمفهومها الجمالي الذي رافق سيرة حياته إلى نهايتها.

لقد جعل (جبرا) من الذات ومحيطها موضوعين متبادلين أحدهما يعكس صورة الآخر، ويجسّده أحيانا مع شعوره أنّ قصّة الطفولة قد تأتي غير مستكملة مغزاها الحقيقي، حين تُفصل عن سياقها اللاحق الذي هو حياة المرء بتمامها، والطفولة في الحق ليست قصّة واحدة بل قصص متباينة، يصعب أحيانا وصل أجزاء بعضها ببعض[33]، ولهذا سرعان ما عاوده الحنين لأن يستكمل سيرة حياة ما بعد (البئر الأولى) حين شرع بكتابة (شارع الأميرات) سيرته الأخرى.

وإذا كان أغلب كتّاب السّير في العالم، ينظرون إلى الطفولة حين الكتابة (بعين النضج) الذي أدركوه مع تقدّم السن[34] ليجعلوا من تلك السنين مقدمات تسوغ لحاضرهم، فإنّهم نادرا ما يتوقّفون عندها في أكثر من فصل، أو فصلين؛ لأنّهم يتعجلون القلم لبلوغ المرحلة الأهم: المراهقة والمراحل اللاحقة، إلا (جبرا) فقد آثر اتّباع طريقة مغايرة لطرائقهم مستذكرا مقولة الشاعر الإنكليزي (وردزويرث William Wordsworth) التي يقول فيها: إنّ الطفل هو ولد الرجل[35]، وإنّ الطفولة مبعث سحر دائم، من هنا بدأت عناية (جبرا) بكتابة سيرة الطفولة التي لها أسبابها، ومقاصدها عند نقاد السيرة، ومبدعيها.

وإذا كانت السيّدة الإنكليزيّة (هايدي لويد) قد حفّزت (جبرا) على كتابة سيرته منذ وقت مبكّر بحسب قوله، فإنّ (جورج ماي) يرى أنّ الدوافع المتنوّعة التي يمكن أن تنشأ عنها كتابة السيرة الذاتيّة تنقسم على قسمين في كلّ واحد منهما أضربٌ من (المقاصد) الأول: المقاصد

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/890

العقلانيّة المنطقيّة الرصينة التي تنقسم بدورها على قسمين: التبرير، والشهادة، والآخر: الدوافع التي هي أقرب إلى الانفعالات، والعواطف، واللاعقلانيّة، وهي بدورها تنقسم على قسمين: يتّصل الأول بشعور الكاتب، وقوامه التلذّذ بالتذكار، أو الجزع من المستقبل، والآخر يتّصل بالحاجة إلى العثور على معنى الحياة المنقضية أو استعادتها[36].

بعد التدقيق في المقاصد السابقة، وعرض سيرة (جبرا: البئر الأولى) بمضمونها على مقولات (ماي) وَجَدْتُ أنّ المقاصد اللاعقلانيّة الخاصّة بالحاجة إلى العثور على معنى الحياة المنقضية، أو استعادتها تكاد تنطبق على مقاصد جبرا من تأليف سيرته؛ لأنّ الدافع الحقيقي لكتابة السيرة عند (جبرا) أي (القصد) يتمثل في قوله: "أن أعود فأحيا تلك الفترة من جديد طفوليّا"[37]، الذي يندرج ضمن الاعتراف بما في محتواه عند (جبرا) ومتلقيه، وهو ما تردّد في مقولة (جورج ماي) تماما.

بين محفّز السيدة الإنكليزيّة، ومقاصد جورج ماي تنبثق عذوبة السيرة في (البئر الأولى) بمقدار انشغالها بالمحسوس من المواقف، وعبورها إلى الجانب الآخر الذهني، وانعكاسهما على بياض الورق، ومن ثمّ دخولهما متن التلقي ليعاد انتاجهما في فسحة التخييل الرحيب.

5– المقدّمة:

مقدمة الكتاب –أيّ كتاب– عتبة مائزة تحمل أكثر من إشارة دالّة على أهميّة الكتاب، ومنهج تأليفه، ومشكلة البحث فيه، وقد تنبّهت السيميائيّة إلى علاميّة المقدمة فرأت فيها فكرة تصديريّة، أو اقتباسا يتموضع (ينقش) على رأس الكتاب، أو في جزء منه، وقد حدّد(جنيت) أربع وظائف للمقدمة اثنتان مباشرتان هما:

1–التعليق على العنوان: ويكون مرّة بشكل قطعي، وأخرى بشكل توضيحي، وهو لا يسوّغ متن الكتاب بل يسوّغ عنوانه، وهو ما بدا واضحا في مقدمة (جبرا) التي انشغلت بالمساعدة في فكّ اشتباك دلالة (البئر) في السيرة.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/890

2-التعليق على متن النص ليكون أكثر وضوحا وجلاء من خلال قراءة العلاقة الرابطة بين المقدّمة والمتن، وهذا ما لم تنفتح عليه مقدمة (جبرا) التي اكتفت بقراءة ظاهرة البئر في عنوان السيرة، ولم تنفتح على ما في متنها.

أمّا الوظيفتان غير المباشرتين فهما:

1-وظيفة الكفالة وهي منحرفة، أي غير مباشرة؛ لأنّ المؤلف يأتي بها لغرض دفع شهرة المقدمة إلى الكتاب، وهي في سيرة (جبرا) كانت قد أخذت شهرته إلى المتلقي وهو يتحسّس متن السيرة بلا كفالة، أو ضمانة بسبب شهرته، وتميّز ابداعه.

2-وظيفة الحضور والغياب وهي عند (جنيت) من أكثر الوظائف انحرافا بسبب ارتباطها بحضور المقدمة الميسور كما أراده المؤلف؛ لأنّ حضورها، أو غيابها يدلّ على جنس الكتاب، أو عصره، أو مذهبه، فحضور المقدمة علامة ثقافيّة وجوازٌ تثاقفيٌّ منقوشٌ على صدر الكتاب، وقد أدّت هذه المقدمة وظيفتها غير المباشرة في سيرة (جبرا) من خلال علاماتها التي أحالت على أن الكتاب سيرة، والسيرة نوع أدبي يتّبع جنس النثر[38].

تعكس مقدمة سيرة (جبرا) الطبيعة الثقافيّة التي ميّزته من غيره من مؤلفي السّير الذاتيّة، فقد جعل لها عنوانا واضحا ومحدّدا: (هذه البئر الأولى) لكي يحيل مضمون السيرة على عنوان المقدمة، وقد استهلها بسؤالات البئر المركزيّة، فضلا عن أنّه جعل المقدّمة خارج متن السيرة لكي يؤكد استقلالها النصي؛ لأنّ فصول السيرة جميعا تبدأ بعد المقدمة بمتوالية حسابيّة ابتدأت بالرقم (1)، وانتهت بالرقم (21) دون أن تدخل المقدّمة في إطارها الشكلي، والمضموني، وقد انفتحت على مسألتين أساسيّتين:

الأولى: أهميّة البئر في حياة (جبرا) الطفل وأسرته، فقد كان العيشُ من دونها مستحيلا، وكان لها أنْ صارت نمطا من الوجود الكلي ذي الخاصيّة المرجعيّة التي تغطي بلاغتها المتن المرويّ، فهي ليست بئرا مجرّدة من حدود التشكيل إنّما هي بئر الآبار التي يُستقى منها في كل حين.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/890

الثانية: أنّ المؤلف جعل من البئر معادلا موضوعيّا لذلك الخزين المتجمّع من التجارب التي عاشها، فهي تتجمع في قعر الذاكرة كما تتجمّع المياه في قعر البئر(39)، وإنْ أخذ شكلا مرمّزا، وقد قُدّر للطفل (جبرا) أن يتحسّسه أولا، ثمّ يكتشف سؤاله على مرّ السنوات حين ازدادت أهميّة الملامسة الرابطة به.

وبعدُ: يكاد (جبرا) في (البئر الأولى) أن يقترب من حياته الأولى قانعا بما فيها من همس ولغو يصل إلى حدّ الصخب، وقد تضافر مع نصّها من خلال الكتابة التي فتحت له نافذة الإطلال على الماضي، وهو يستعيد حريّته الأولى لملامسة زمن الطفولة حاملا البراءة، وسلّم الارتقاء إلى المستقبل، هل نجح (جبرا) في استعادة ماضيه؟ كيف وفّق في إعادة إنتاج الممثّل الحياتي الذي كانه؟

لاشكّ في أنّ كتابة السير الذاتيّة تمنح صاحبها سلطة استعادة مغاليق الماضي لحظة المواجهة الخاصّة بين مداد القلم وبياض الورق البريء في ظل ازدحام أشرطة الماضي، وتعلّق الذات بجماليّات المواقف، والمساندة الواضحة للعواطف الأولى، والرغبة الجامحة لتحييد وجهات النظر، والانتشال المتعمد للسرديّات الصغرى العالقة في أقصى نهايات الذاكرة: سريات الحياة التي تلبث فيما بعد على ورق الكتابة بوحا يشاكس النسيان، والعثرات الصغيرة، ليتشفى من الحاضر، ويلوي أصابع السارد لحظة الشروع في مغايرة الحقائق وإلباسها ثوب التعقّل.

ما يهمّ (القراءة) في (البئر الأولى) حضور الذات المبدعة، وهي تضيء قناديل العتبات الخاصّة بالسيرة، قبل أن تنقل السرد إلى المتن، وتتماهى في إعادة تشكيل شهوات الحياة الأليفة على صفحات الورق، وتنحاز فنيّا إلى ظلال الطفولة المنغمسة في ملذّات التجارب الصغيرة تلك التي ستخضرّ في قابل الأيام، ويغدو لها متنٌ يُحاكي المسافة الفاصلة بين زمنين مختلفين: زمن الحياة، و زمن الكتابة.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/890

الخاتمة:

1- عتبات (البئر الأولى) اشتملت على نظام علاماتي، سمح بالدخول إلى ما وراءها ليس لأنها خطاب مواز للخطاب، بل لأنها ممّا يدخل في عداد التلقي، وفعل التأويل الذي أسهم في إغناء طبقات الدلالة، فضلا عن اشتمالها على وظائف معروفة أسهمت في قراءة متن السيرة، وتحديد خصائصها النوعيّة.

2- غلاف (البئر الأولى) إيقونة دخلت في علاقة تماثل مع حقيقة العالم الخارجي الخاص بالكتاب والمؤلّف، فاسم الكتاب أحال على علامة لسانية اقترنت باسم المؤلّف ليتشاكلا لسانيّا بمدلول يفضي إلى شكل السيرة وعلاماتها، فضلا عن ظهور الايقونات الأخرى التي عملت مجتمعة على تحفيز المتلقي نحو فعل القراءة الخاص بالسيرة.

3- عتبة العنوان (البئر الأولى) انزاحت من دلالتها الحقيقيّة الأولى، إلى دلالة مجازيّة رمزيّة بفعل التأويل الذي جعل من البئر مجازا، لا يمنح مياهه إلا لمن كان على وعي خاص بطبيعة الحياة التي رافقت نصّ السيرة، وهي مغلّفة بجماليّات البنية العامّة للمتن تلك التي أسهمت في تقديم المسرود منظّما على وفق معايير فنيّة جاذبة تُعنى بالبناء السردي للسيرة على وفق المقتربات الشعريّة.

4- وكانت عتبة الإهداء قد اتسمت بمحمول إشاريّ جمع المهدي والمهدى إليه في حاضنة ثقافيّة، ربطت بوساطة تجسير المسافات الشاسعة بين إنسانين اتفقا على الشراكة في إنتاج السيرة وتلقيها كلّ بطريقته الخاصّة، فإهداء (جبرا) يحمل شكل قرينة تحيل على علاقة التلاحم الطبيعي بين مرسلين بينهما نصّ رسالة.

5- أسهم استهلال السيرة في ضمان دخول المتلقي إلى متنها بوساطة صيغ الاستعراض، والمساءلة، والانفتاح على الكتابة بوصفها همّا، وهي تخوض في تجارب لها ما يسوّغ وجودها، فقد جعل (جبرا) من ذاته ومحيطها موضوعين متبادلين أحدهما يعكس صورة الآخر، ويجسّده

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/890

أحيانا مع شعوره أنّ قصّه الطفولة قد تأتي غير مستكملة مغزاها الحقيقي حين تُفصل عن سياقها اللاحق، الذي هو حياة المرء بتمامها، والطفولة في الحق ليست قصّة واحدة بل قصص متباينة يصعب أحيانا وصل أجزاء بعضها ببعض؛ ولهذا سرعان ما عاود (جبرا) الحنين لأن يستكمل سيرة حياة ما بعد (البئر الأولى) حين شرع بكتابة (شارع الأميرات) سيرته الثانية.

6- وكان لمقدمة السيرة أن احتفلت بالطبيعة الثقافيّة التي ميّزت (جبرا) من غيره من مؤلّفي السير الذاتيّة، نظرا إلى ما تتمتّع به المقدمّة من سمات تتعلّق بالعنوان الذي خرج إلى دلالة مجازيّة جعلت السيرة منشدّة إلى جماليّات مكسوة بالدلالات العابرة للمعنى الأول، وهي تتّخذ الإجراء الاستعاريّ، والتشبيهي الناهض بالدلالات التي لا يمكن إدراكها إلا بالتأويل الذي أخرج البنية السرديّة من إطار صوغها المعتاد، ليدخلها في إطار من العلاقات الجماليّة التي تعتمد الإيجاز، والتكثيف اللذين تضافرا مع أصل المتن السردي للسيرة المنزاح نحو لغة الشعر.

7- عتبات (البئر الأولى) أحاطت مداخل السيرة بما تمتلك من علاميّة دالّة على المتن؛ ولهذا كانت بمنزلة التقديم العام لمجمل مظاهر الصوغ اللساني الذي احتفى بعناصر السيرة المعروفة، فهي لا تعمل داخل البراءة الابداعيّة إنّما تجتازها بمقصديّة غائبة في حضور علاماتها.

الهوامش:

1- دار الآداب: بيروت: ط1 :2009.

2- جورج ماي: السيرة الذاتية، تعريب: محمد القاضي وعبد الله صولة، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، بيت الحكمة، تونس 1992م، ص 128.

3- ينظر: د. محمد صابر عبيد: المغامرة الجماليّة للنص السير ذاتي، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2011.ص5.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/890

4- د. محمد سالم سعد الله: خطاب العتبات نحو نظام سيميائي، كلية الآداب / جامعة الموصل: الجامعة الأردنية /كلية الآداب: المؤتمر الدولي: افاق جديدة في الخطاب: اللغة . الادب . الثقافة : 10 / 5 / 2007م، ص 8 .

5- ينظر: د. يوسف وغليسي: إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، الدار العربيّة للعلوم – منشورات الاختلاف. وتنظر مراجعه، ص244.

6- ينظر: عتبات (جيرار جينيت من النص إلى المناص): عبد الحق بلعابد: ناشرون: منشورات الاختلاف: ط1: 2008، ص 67.

7- المؤسسة العربية للدراسات والنشر: بيروت: 1994 م.

8- ينظر: عتبات.ص 68.

9- ينظر: المرجع نفسه، ص 78-87..

10- البئر الأولى، ص 13.

11- المصدر نفسه، ص 13.

12- المصدر نفسه، ص 15.

13- ينظر:: حميد لحميداني: أسلوبيّة الرواية مدخل نظري ، منشورات دراسات سال، ط 1، 1989. ص 62.

14- البئر الأولى، ص 15.

15- ينظر: فيصل الأحمر: معجم السيميائيّات، الدار العربيّة للعلوم ناشرون، ط1، 2010، ص 55. وتنظر مراجعه.

16- ينظر: عتبات، ص93.

17- البئر الأولى، ص 5.

18- ينظر: عتبات، ص93.

19- ينظر: خليل شكري هيّاس: سيرة جبرا الذاتيّة في البئر الأولى وشارع الاميرات، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001، ص 50.

20- ينظر: عتبات، ص 99.

21- ينظر: المرجع نفسه، صص 112،118.

22- ينظر: السيرة الذاتية، ص83،84.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/890

23- ينظر: المغامرة الجماليّة للنص السير ذاتي، ص 193.
24- ينظر: السيرة الذاتيّة، ص 176.
25- المرجع نفسه، ص 94.
26- ينظر: د. فاضل عبود التميمي: من الذات إلى الحياة قراءة في (فصول ذاتيّة من سيرة غير ذاتيّة) لعلي جواد الطاهر: مجلة الأقلام: ع 1، كانون الثاني، 2016، ص 148.
27-ينظر: السيرة الذاتيّة، ص 179.
28- ينظر: المرجع نفسه، ص 190.
29- ينظر: المرجع نفسه، ص 181،190.
30- البئر الأولى، ص 9.
31- ينظر: المصدر نفسه، ص 10.
32- ينظر: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
33- ينظر: المصدر نفسه، ص11.
34- ينظر: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
35- ينظر: المصدر نفسه، 12.
36- ينظر: السيرة الذاتيّة، ص 48.
37- البئر الأولى، ص 12.
38- ينظر: عتبات، ص107-112.
39- خليل شكري هيّاس: سيرة جبرا الذاتية في البئر الأولى وشارع الأميرات، ص 55- 60.

المصادر والمراجع:

1- جبرا إبراهيم جبرا: البئر الأولى، دار الآداب، ط1 :.2009
2- جبرا إبراهيم جبرا: شارع الأميرات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1994.
3- جورج ماي: السيرة الذاتية: تعريب: محمد القاضي وعبد الله صولة، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، بيت الحكمة، تونس .1992
4- حميد لحميداني: أسلوبيّة الرواية مدخل نظري، منشورات دراسات سال، ط 1، 1989.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/890

5- خليل شكري هيّاس: سيرة جبرا الذاتيّة في البئر الأولى وشارع الأميرات، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001.

6- عبد الحق بلعابد: عتبات (جيرار جينيت من النص إلى المناص)، ناشرون: منشورات الاختلاف، ط1، 2008.

7- فاضل عبود التميمي: من الذات إلى الحياة قراءة في (فصول ذاتيّة من سيرة غير ذاتيّة) لعلي جواد الطاهر، مجلة الأقلام، ع 1، كانون الثاني، 2016.

8- فيصل الأحمر: معجم السيميائيّات، الدار العربيّة للعلوم ناشرون، ط1، 2010.

9- محمد سالم سعد الله: خطاب العتبات نحو نظام سيميائي،كلية الآداب / جامعة الموصل، الجامعة الأردنية / كلية الآداب: المؤتمر الدولي، آفاق جديدة في الخطاب، اللغة . الادب . الثقافة: 8 . 10 / 5 / 2007م.

10- محمد صابر عبيد: المغامرة الجماليّة للنص السير ذاتي، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2011.

11- يوسف وغليسي: إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، الدار العربيّة للعلوم ناشرون بيروت، منشورات الاختلاف الجزائر، الطبعة الأولى، 2008.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/890